الجامعة الالمانية

انشأ الاستاذ داود ستار جوردان رئيس جامعة ستراتفورد الشهيرة بكليفورنيا مقالة في هذا الموضوع نشرتها المجلة العلمية الشهرية وصف فيها الدعوة القائمة في بلاد الالمان باسم الجامعة الالمانية Alldeutschtum Verband فعربناها في ما يلي لاننا رأينا فيها اوضح شرح للاسباب التي دفعت الالمان الى هذه الحرب الضروس قال :

ان سكان المانيا فريقان فريق حسن النية سهل القياد عاكف على اعماله مدقق فيها. وفريق طماع مستبيح يزدري رأي الجمهور لانهُ يدّعي ان ليس للجمهور رأي ويثق باحكامهِ ثقة عمياء ويحاول اجبار الناس على الاخذ بها

والفريق الاول مقسوم الى اكثر من اثني عشر حزباً ولكنها متصفة كلها بالصفات المتقدمة وهي الصفات التي كان الناس يحبون بها ويتسبونها الى الامّة الالمانية جمعاء فيقولون انها امّة علم وصداقة وكفاءة . والفريق الثاني شديد العزم محب للانتقام معبودهُ الجامعة الالمانية . وما هذه الجامعة الاّ آراؤهُ واعمالهُ ومقاصدهُ فلا مشابهة بينها وبين الجامعة الاميركية والجامعة السلافية لانها حزب سياسي رجعي متغلغل والجامعتان الاخريان كلٌّ منهما خلاصة امانيّ البلاد التي هي فيها

الجامعة الالمانية تطلب من الشعب الالماني ان يبسط سيادتهُ الحكمة على العالم كله بدل السيادة الانكليزية التي يقول انها قائمة على اساس واهن . ووراء السيادة الالمانية هذه جماعة من التجار والاعيان والعظاميين ورجال الحرب واصحاب الاوهام والاماني وما منهم مَن يألف ان يأتي كل كبيرة اذا حسب ان من ورائها نفعاً لالمانيا . واركان الحرب الالماني ملتحمون من هؤلاء الناس اشد الالتحام وغير خاضعين للوزارات الالمانية

ومن اشهر الاقوال المعبّرة عن رأي اصحاب الجامعة الالمانية القول المنسوب الى الاستاذ فون ستخيل الذي قيل انهُ كان معارضاً لمؤتمر السلم ومحور من الوسائل التي يقصد منها الاتفاق العام . وحجتهُ في هذه المعارضة انهُ لا داعي لهذا الاتفاق بعدما تسلط المانيا على العالم وتلزم الناس باتباع مشيئتها . وممّا ينسب اليهِ قولهُ

« ان الشرط الوحيد للنجاح ولاسيما للامم الجايدة هو ان يخضعوا لمشيئتنا فاننا اذا سدنا العالم صارت القوانين الدولية فضلة زائدة لا داعي لها ولا فائدة منها لاننا نحن نمتّع كل احد بما يحق لهُ من تلقاء انفسنا »

ولا شبهة الآن ان اصحاب الجامعة الالمانية هم الذين اضرموا نار هذه الحرب وهم الذين كانوا سبب المباراة في التجنيد حتى بلغ الغاية القصوى وصارت به الحرب ضربة لازب . ولا شبهة ايضاً ان نجاح اوربا في المستقبل متوقف على المانيا فاذا استطاعت كبح جماح المنادين بالجامعة الالمانية من ابنائها نجت اوربا من شرها والاَّ فلا

ومعلوم ان العامة اذا قامت تطلب مساواتها بالخاصة الممتازة انتهستها الخاصة بانها تحب الانقسام ولا تراعي مصالح وطنها ولا تفضله على غيره من الاوطان . وذلك مشاهد في كل بلاد ولكنهُ بلغ الغاية القصوى في بلاد الالمان

وقد وضع اساس الجامعة الالمانية هذه في مدينة برلين في شهر ابريل سنة ١٨٩١ وكانت المانيا قد اعطت انكلترا جزيرة زنجبار واخذت منها جزيرة هليغولند وذلك في نوفمبر سنة ١٨٩٠ . وزنجبار مثل مفتاح لشرق افريقية ولها شأن كبير عند الحزب البريطاني الاستعماري . وهليغولند كانت مديناً صغيراً لا شأن لها عند الانكليز ولكن لها شأناً كبيراً عند الالمان في حماية ساحل المانيا وترعتها واسطولها . والامبراطور الحالي هو الذي سعى الى هذه المبادلة وقد خطَّاه الالمان حينئذٍ قائلين انهُ ضحَّى مصالحهم الاستعمارية لاجل جزيرة فائدتها محليَّة

وقد وقفت الجامعة الالمانية وقفة الخصم امام كل اتفاق دولي فشاذَّت الوزارات الالمانية كلها لانهُ ما من وزارة تستطيع ان تثبت من غير ان توافق وزارات سائر الدول في بعض الامور وكان مركزها بين الاشراف اصحاب الاطيان الواسعة واشتراك معهم محبو التوسع الامبراطوري والحزب الحربي والقائلون بالسياسة الخارجية الممتازة بالشدة والجبروت وبين هؤلاء ضباط الجيش اجمع وطائفة الاساقفة والنظارنة . ولقد احسن جون هيمن حيث قال ان الجيش هو ساعد الممتازين الايمن وخدَّمة الدين ساعدهم الايسر . وكان من اول زعماء خدمة الدين المؤيدين لها الكردينال بوب واسقف برسلو والكونت ستلبرج فرنجرود حاكم بروسيا الشرقية

وقد قال الاستاذ هرمن فرنان ان الذين نفخوا ببوق الحرب في المانيا بين الطبقات العليا هم الاقَّاقون ورجال الحرب واصحاب الجامعة الالمانية . واذا نظرنا الى هذه الجامعة والى جمعية البحرية وجمعية الدفاع ونحوها من الجمعيات وجدنا في المانيا اقواماً امتدت سلطتهم في البلاد كلها واعدَّتها لهذه الحرب التي يتوقع الالمان من وراثها ان يسودوا العالم اجمع

ولم تعلن اسماء الرؤساء الحقيقيين لهذه الجامعة ولكن يظهر ان رؤساءها العاملين كانوا

واما من قواد الجيش المتقاعدين وقد يكون بينهم بعض اساتذة المدارس مثل كارل هس واما الرئاسة الظاهرة فتكون لواحد من السكان احفاد لحنيفة ويتطبق ذلك على رئيسها الحالي هركلاس فانهُ ليس من ذوي الشأن في البلاد الالمانية

وكان عدد اعضائها ٢٠٠٠ سنة ١٨٩٧ و٢٢٠٠٠ سنة ١٩٠٢ ونحو ٣٠٠٠٠ سنة ١٩١٤ . ومنذ ١٢ سنة كان ٣٣٠٠ من اعضائها ساكنين في غير المانيا وبعضهم متحد رعوية البلاد التي هم فيها وبعضهم نزلاء فقط . وكان لها حينئذٍ ٢٣ فرعاً منها في البلدان الاجنبية وغرض اعضائها ان يحثوا كل الالمان المتغربين على خدمة الجامعة الالمانية

والقصد الذي جاهرت الجامعة بهِ هو ان تقوي الشعور الوطني وتقنع الالمان انهم قوة وجدت لتسود العالم وانهُ لا حرام ولا حلال اذا اعتبرت مصالح الدولة بل كل شيء محلل لها لانها فوق هذه القيود وهي غير مكلفة ان تخضع لاحد لانهُ لا قوة فوقها بل هي فوق الجميع . فلا بد اذاً من وجود دولة كبيرة سامية وان تكون من القوة بحيث تستطيع ان تجاهل توازن الدول ومن الحكمة بحيث تستحق ان تتسلط على الجميع

والاغراض التي ترمي اليها الجامعة الالمانية هي

اولاً ان يكون لالمانيا سياسة استعمارية قوية وان تعتمد شعبها في المهاجرة الى مستعمراتها

ثانياً ان توسع نطاق المدارس الالمانية في البلدان الاجنبية

ثالثاً ان تحيي الشعور الوطني وتميت كل الاميال المقاومة لهُ

رابعاً ان تجعل التعليم كلهُ يرمي الى غرض واحد وهو المصلحة الوطنية

خامساً ان تنمي وتقوي كل الاميال الوطنية بين الالمان في بلادهم وخارجها

سادساً ان تعمل عملاً سياسياً قوياً يراد بهِ تعزيز مصالح الالمان المالية في اوربا وفي سائر البلدان وتجعل مدار السياسة الخارجية مصالح الالمان المادية

ولا يراد بمصالح الالمان المادية مجد المانيا بل الغرض الذي لاجلهِ يُطلَب هذا المجد وهو المكسب المالي

وكانت الاعمال التي عملتها الجامعة اولاً موجهة بنوع خاص في ثلاث جهات

الاولى السعي في تقوية التجربة وقد نتج عن هذا السعي انشاء الجمعية البحرية والجمعية العسكرية

ثانياً شد ازر البوير زمن حرب الترنسفال فجمعت حينئذٍ خمس مئة الف مارك لهذا الغرض

ثالثاً مقاومة السياسة التي كان الكونت كبرنثي جارياً عليها لانها كانت سياسة مسالمة لاهالي بولندا

و يضاف الى ذلك اولاً سعي الامبراطور الى توحيد الشعوب الالمانية وثانياً اعتمام ملتكي بتعميق مصبات الانهر الالمانية الكبرى لتدخلها السفن الكبيرة

فنتج عن مساعي الجامعة الالمانية انها قوّت في المانيا الاميال والاعمال الآيلة الى التوسع في التملك والاكتساب والى زيادة النفقات الحربية . وقوّت خارج المانيا مصالح الالمان بالقاء النفور والعداء بين سائر الممالك وجعلت المانيا على تمام الاهبة لانتضاء الحسام في اي وقت كان حاسبة ذلك من اقوى دعائم مجدها والزم لوازم السياسة التي جعلتها مرعية الجانب تخافها الدول كلها او تكرهها

ومن الالفاظ المأثورة التي يتشدق بها رجال الجامعة الالمانية قولهم « مصالح العالم » « الاعمال الكبرى » « الحرب الكبرى » « الخطر السلافي » « التهديد الانكليزي » « الاحتكار البريطاني » « الانتقام الفرنسوي » . وكانوا يعبّرون عن اغراضهم الجغرافية بقولهم « برلين كالله » « برلين ربنا » « همبرج سلانيك » « همبرج بغداد خليج فارس »

والقياط المتقاعدون من خطباء الجامعة وتدور خطبهم على موضوع واحد وهو « عز الحرب وذل السلم » وما يترتّب على ذلك من لزوم الحرب لاجل تحقيق امالي المانيا في العالم

واقدر الناطقين في بوق الجامعة الالمانية والمعبرين عن افكارها الجنرال برنهاردي Bernhardi الذي كان من اركان الحرب . وكتاباتهُ وخطبهُ في المنزلة الاولى من الوضوح والافصاح والعداء لنوع الانسان . ولا محل لاطالة الكلام عليها هنا ولكن مفادها واحد وهو قولهُ « ان القوانين ليست الاّ واسطة للتسكين والعبرة كلها بالقوة القوانين للضعيف والقوة للقوي »

والجنرال فون كيم اشد من برنهاردي وطأة واكثر منهُ نثرة ولكنهُ اقل منهُ قوة في حججهِ وامثلاتهِ لطبعهِ وهو ايضاً من اعضاء اركان الحرب وقد طاف في المانيا كلها قبل سنة ١٩١٤ منبئاً بقرب نشوب الحرب وحاثّاً قومهُ على محاربة انكلترا وروسيا . ومن اقوالهِ المأثورة الدالة على منهاجهِ قولهُ

« ان السبيل للاتحاد الالماني والعظمة الالمانية لا يمهّد بالكتابة والطباعة وقرارات مجلس النواب بل بالسيف والدم . والممالك تحفظ بنفس الاسباب التي تنشأ بها ولذلك لا بدَّ لنا من جيش كبير واسطول عظيم . ولا تسع الدنيا الاّ للشعب الذي بُثَّ في نفسهِ

حب الحرب . فعلينا ان نقول لكل فتى ولكل فتاة من الالمان انهُ يجب علينا ان نبغض كل اعداء وطننا . فهيَّا بنا هيَّا بنا الى الحرب . يجب ان نربي انفسنا على البغض لنجرَّ من ورائهِ مغنمًا وكل من لا يبغض لغاية ما لا شأن لهُ وما بسهارك الاَّ عنوان البغض »

وقد خطب الاميرال بروسنغ من اعضاء اركان الحرب في بازل بسويسرا سنة ١٩١٣ فحدَّد الزمن الذي تعلن فيهِ المانيا الحرب وقال انهُ صيف سنة ١٩١٤ وهو الزمن الذي حددهُ برنهاردي ايضاً لاعلان الحرب . ووصف الاميرال بروسنغ خطة الاسطول الالماني بالتفصيل فقال انها تدور على ارهاق الاسطول البريطاني في وقائع صغيرة الى ان تأتي المعركة الكبرى وحينئذٍ يتغلب الاسطول الالماني على البريطاني بما امتاز بهِ من جودة مدافعهِ ومهارة بحَّارتهِ

والشعب الالماني لم يحكم نفسهُ بنفسهِ مطلقاً ومعلوم ان الشعب الذي لا يدير امورهُ بنفسهِ بل يوكل تدبيرها الى غيرهِ يحكمهُ غيرهُ وهذا ما تتوخاهُ الجامعة الالمانية

وقد قال بريلـفورد ان مهمة وزير المانيا ان يجعل نفسهُ آلة في يد غيرهِ . وكل وزير من وزراء الامبراطورية الالمانية من كبيرهم الى بتمن هلمج عاملهُ الجامعة الالمانية هذه المعاملة

واقوى الوزارات في كل بلاد اقدرها على الثبات في المحن الكبار ولكنها اذا لم يغل يديها مجلس النواب ولا القوانين والميزانيات كانت عرضة للدسائس الداخلية . ويقال ان اول ما يُطلب من الوزارة القوية هو ان تعنى بالمصالح الملكية والحربية والمالية ولكن تضارب هذه المصالح يخرِّب عظامها ويقوض اساسها . وما من وزارة تود ان تجعل سياستها في يد هذه المصالح ولكن مقدرتها على مقاومتها تضعف على نسبة ابتعادها عن الشعب

ولقد صارت الجامعة الالمانية مهيمنة على السياسة البروسية اي على السياسة الالمانية كلها لانها تعتمد على تحريك الاميال النفسية ولاسيما في ما يتعلَّق بالتفوق الالماني فتقدمت رويداً رويداً الى استخدام البلدان الضعيفة والدخول الى كل الاماكن بواسطة العمال الالمان وزيادة ثروة من عندها من الاشراف . وكانت الاراجيف الحربية من اقوى الوسائل التي لجأت اليها . الاَّ ان تعطرسها وازدراءها غيرها وتباهيها بقوتها الحربية وكفاءتها البحرية اضطرت الدول الاخرى الى اطراح ما بينهنَّ من المضاغنات والاتفاق على مقاومتها في سبيل الدفاع عن انفسهنَّ . ويمكن تحديد الجامعة الالمانية بانها وسيلة لنشر سطوة المانيا على قارة اوربا وسلطتها على المستعمرات وحمايتها على البلدان الكثيرة في اسيا وافريقية . وقد توسلت بوسائل مختلفة حتى صار لها اليد العليا في بلاط الامبراطور والدوائر الحربية وبين رجال

العز في المدارس والجامعات وصار لها ايضاً شأن كبير في الصحافة وتمكنت بواسطة وزارة المعارف من ابعاد الطلبة الذين يبلهم جمهوري عن تولي مناصب التدريس وتنصيب الذين يؤيدون اغراضها اساتذة للتاريخ والعلوم السياسية. فهي لسان حال الذين يكرهون الحرية في المانيا سياسياً وحرياً واجتماعياً وحسبهم الحصين ولها اليد الطولى في جعل الحكومة الالمانية شركة تجارية غرضها الكسب المالي واعطاء اعضائها الاعانات المالية على اساليب مختلفة. وهم يستغنون بعالم حتى يتألوا منهم اكثر ما يمكن من العمل باقل ما يمكن من النفقة. وقد تدرَّب الشعب الالماني بواسطتها تدريباً ينفي الاستقلال الذاتي ويغرس مكانهُ الطاعة والانقياد لما يؤمر به فصارت المانيا بها مملكة قوية متحدة ترمي الى اجبار الممالك المجاورة او الخاضعة لها على مسالمتها بما تراهُ فيها من القوة والتحفز للقتال والتفوُّق في الاعمال الصناعية والحربية والاتحاد في انجاز المقاصد المبني على كون حكم البلاد استبدادياً لا دستورياً. وعندهم ان الفائدة التي يجنيها سائر العالم من السيطرة الالمانية تفوق الحزن والخراب اللذين قد يحدثان حينما تنتشر اساليب الالمان فيهِ. وتفوُّق الالمان يكسبهم قوة لا ينازعون فيها فان القوة توجب الحاجة والحاجة اساس الحق

ان مساعي الجامعة الالمانية تدلُّ على الحالة التي كانت فيها المانيا حينما نشبت الحرب. فان الامة الالمانية كانت قد صارت بمثابة شركة صناعية تجارية كبيرة استخدمت كل قواها الداخلية والخارجية لانجاح فريق من اصحاب الاملاك والمعامل والمتاجر والاموال. والى هذا الغرض اتجهت كل موارد البلاد وكل الميات والمساعدات التي مكنتها من مزاحمة التجار الاجانب وبيع البضائع في اسواق العالم باقل من ثمنها الاصلي والاهتمام بالعمال ومنع كل شكوى تبدو منهم ولو بالقوة وقمع كل ثورة فكرية يقصد بها اطلاق الحرية. وقد بني هذا النظام على استقراض الاموال من البلدان الاجنبية للقيام بنفقاتهِ الباهظة ولذلك كان لا بدَّ من ان ينقوض من اساسهِ وقتاً ما فوقعت هذه الحرب لتقويضهِ

وهذه السياسة المالية الخفاء كان لها مثيل في بلدان اخرى ولكن ما من بلاد تضافرت فيها كل القوى على تأييدها وخضعت لها حكومة البلاد كما تضافرت في المانيا وخضعت لها حكومتها

ولم يكن الشعب الالماني يعنى بمساعي هذه الجامعة قبل الحرب الاَّ قليلاً فلما كنتُ في باڤاريا سنة ١٩١٣ اوصف لي برنهاردي بانهُ «ضابط نافع على الحكومة لانهُ حُرم من الترقي» ولم يكن جمهور المثقفين يهتم بهِ ولا بكتابهِ الذي عنوانهُ «المانيا والحرب المقبلة» وكانت

البلاد في فلاح ورخاء وسكينة لا تشكو الا مما قد ينالها من مزاحمة تجار الانكليز لتجارها في انكلترا وتهديد اعدائها لها في فرنسا وروسيا . والامبراطور وهو من المحبين للتباهي بالمظاهرات الحربية وباظهار القوة لم يكن يرغب في دخول الحرب فعلاً ووزير الامبراطورية ووزير الخارجية كانا من محبي السلام وكان المشهور حينئذ ان اصحاب الجامعة الالمانية حفنة من الرجال اصحاب الاوهام الذين يحلمون بالتسلط على العالم وقلما يستحقون ان يعنى بامرهم وما اعمالهم الا من قبيل ما يجري عادة ولكن خفي على الذين كانوا يظنون هذا الظن ان ما كان يجري حينئذ انما هو من افعال هذه الجامعة فان كل عمل عدائي عملهُ الالمان كانت الجامعة المحركة لهُ والدافعة اليهِ . قال كرت ايسنر « ان فعل رجال الجامعة الالمانية في تكييف سياسة البلاد كان اقوى من فعل اعظم الشركات المؤلفة من كبار المالكين وكبار الماليين ولو اجتمعت كلها معاً . ولقد حُرِّضت الحكومة دائماً على رجال الجامعة لكي تكبح جماحهم لكن رأس الحكومة تدرَّج في النسج على منوالهم حتى صار منهم وذلك لان الحكومة انقادت دائماً الى ما كانت تقاومهُ في اول الامر لانها اضطرت ان تجاري الرأي العام الذي هو صدى ما يقولهُ اهل السيادة في برلين . وكل المشروعات الحربية من اول مشروع لزيادة الاسطول الى آخر مشروع للدفاع الوطني وضعت في دوائر هذه الجامعة . والغرض الذي ترمي اليهِ الجامعة امتلاك المستعمرات الكبيرة حيث يستطيع الالمان ان يسكنوا ويستغلوا الارض ويستخرجوا منها المواد اللازمة لصناعتنا ويتمكنوا من بيع مصنوعاتنا . اي حيث يكون لبضائعنا سوق لا يزاحمنا فيها مزاحم . هذه هي الامنية التي يتمناها اصحاب تجارة الصادرات

« ولا تنال هذه المستعمرات حسب رأي الجامعة الا بتقوية مركز الامبراطورية الحربي في اوربا ولذلك تدعو الحال الى فرض الخدمة العسكرية على كل احد والى فتح اوسع الابواب لانشاء الاساطيل الحربية وايجاد الاماكن الصالحة للوقوف فيها ولتجهيزها بما تحتاج اليهِ من الفحم

« وزد على ذلك ان جماعة المتعلمين يعاونون الجامعة وهم سطوة نافذة في كل مكان لانهم اكثروا من الاسفار ووقفوا على امور كثيرة يسهل عليهم نشرها في الجرائد والاحتجاج بها كلما دارت المناقشات السياسية فيؤخذ الجمهور بها على غرة وينقاد اليها ولا سيما اذا حدثت حوادث تؤيدهم وظهر ان حدوثها جاء اتفاقاً مع ان الجامعة تكون قد اشتغلت منذ سنين في إعدادها »

ستأتي البقية